بسم الله الرحمن الرحيم

كورونا والمؤامرة

كنت قديما كتبت مسوّدة مقال حول نظرية المؤامرة من منطلق شرعي ، وبهذه المناسبة وفي الأحداث الجارية (فيروس كورونا) برزت المؤامرة كتحليل من التحليلات ؛ فمن المناسب التقديم أولا بالمقال التأصيلي ، ثم الحديث عن (كورونا والمؤامرة) .

نظرية المؤامرة رؤية شرعية

نظرية المؤامرة نراها حاضرة في تحليل الأحداث في الصحف أو القنوات وفي مجالس الناس الخاصة ...

وفي كثير من الأحداث نجد المؤامرة كتحليل يتصدر جميع التحليلات لدى طائفة من الكتاب والمتحدثين ولدى بعض الناس في مجالسهم ، وليس هذا التحليل للأحداث يختص بشريحة من الناس بل نجده من شرائح متفاوتة في خلفياتها الثقافية وفي مستوياتها الفكرية.

ربما يلجأ البعض إلى نسبة الحدث إلى المؤامرة لدوافع قد لا يدركها من نفسه مثل كونه التحليل الأسهل ، ومثل الإيحاء للآخرين بأنه أبعد نظراً وأعمق تحليلاً ، وتراه يشعرك بأنه أكثر عمقاً منك فأنت سطحي إذا حللت الحدث على ظاهره، وربما يلجأ البعض في بعض الأحداث إلى هذا التحليل بسبب الإحباط واليأس.

حين ندرس ذلك من المنظور الشرعي فثمّ قواعد شرعية يمكن أن نحدد من خلالها موقفنا من نسبة الأحداث إلى المؤامرة ، وفق ما يلي:

لدينا قواعد شرعية تؤكد معنى مهما هو الأخذ بالأصل والظاهر حتى يتبين خلافه ، وفي هذا السياق يمكن أن نقرأ جملة من القواعد كقاعدة (البينة على المدعي) .

فالحدث الذي نراه ونرى أسبابه هو الأصل في التفسير والتحليل فمن ادعى وراء ذلك مؤامرة فعليه الدليل فإذا ثبت بالبرهان والدليل أو القرائن القوية كان تحليلاً مقبولاً، وأما اعتبار الأصل هو المؤامرة فهذا عين الخطأ في تقديري.

فدعوى المؤامرة قد تكون صحيحة لكننا لن نقبلها إلا حين نجد الدليل فإن لم يثبت المدعي ذلك أعملنا الأصل والظاهر وهو صورة الحدث وأسبابه الظاهرة .

نحن لا نحجر على الناس التحليل الذي يرونه لكن حين تسألني عن الموقف حسب القاعدة التي أسلفت بل القواعد الشرعية والعقلية فهو أننا يجب أن نتعامل مع الأحداث حسب المعطيات التي أمامنا ومن يدعي خلافها فعليه البرهان والدليل.

على مدعي المؤامرة في حدثٍ ما أن يبرهن من خلال دلائل قوية وجود تلك المؤامرة ولا تكفي العمومات .

نحن لا ننكر المؤامرة في حالات كثيرة ، ونحن أيضاً لا ننكر على الأخص المكر الغربي والدهاء الخبيث الذي يستخدمونه لامتصاص أموال الشعوب بل ودماءهم ويستخدمونه كذلك لتضليل الشعوب .

لكن كل ذلك لا يعد دليلاً لوحده لاعتبار كل حدثٍ مؤامرة بل لابد للحدث ذاته من دلالة خاصة تدل على وجود المؤامرة فيه .

ولو اعتمدنا على ما يطرحه البعض من تلك العمومات (قوة أمريكا وسيطرتها- قدراتها التخطيطية والمخابراتية- قوة الغرب وتربصه بالمسلمين ...الخ) فمعنى ذلك أننا أغفلنا قواعد ومعاني في ديننا هي الأخرى أولى باعتبارها .

نجد أمامنا في القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} ، وقوله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} .

ننسى أحياناً قواعد عظيمة في ديننا الأعظم بعضها من أركان العقيدة ، فمع تراكمات الهزائم والسيطرة الغربية والتخاذل لدى بعض المسلمين ربما خلعنا على أمريكا أو (الغرب) شيئاً من صفات الربوبية ونحن لا نشعر مثل ما توحي به العبارات السابقة حيث توحي بأن أمريكا لها القدرة المطلقة في معرفة ما يجري بل وما سيجري ولا يمكن أن يقع شيء بدون علمها ولا بدون رضاها ...وكل ما يحدث فهو من تدبيرها...

فهذه الحقائق المطلقة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى .

نعم أمريكا بلا شك قد أخذت بالأسباب المادية منذ عشرات السنين ، والمسلمون أعرضوا عن {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ } ، وهي شاملة لكل قوة بها قوام الأمم وليست القوة العسكرية سوى واحدة من منظومة القوى التي يجب علينا إعدادها ، فأمريكا لا شك فيما آلت إليه بعد عقود من الزمن المليء بالإعداد ، ولا شك فيما تمكر به وتلتف وتتحايل وتخادع وتضلل لأجل مصالحها .

لكن يبقى البشر بشراً وتبقى حساباتهم مهما بلغت قد تخطئ وهم يعترفون بذلك وموقنون به **هذا أولاً** ..

ولكي ندرك ذلك أكثر علينا أن نحلل ببساطة كيف تصل المعلومة ثم كيف يصدر القرار بناءً على تلك المعلومة .

فالمعلومة لا تخلو إما أن تكون توصيفاً لواقعٍ معين أو توقعات ما سيحدث ، هذه المعلومة ليست نتيجة آلة حاسبة بل نتيجة جهد واجتهاد بشري تعتريه وتؤثر عليه عوامل عدة ، ونسبة الخطأ في توقع ما سيحدث أكثر من نسبة الخطأ في التوصيف مع احتمال الخطأ الكلي أو النسبي في كلٍ منهما .

ومع هذا كله فلا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل ما سبق لا يؤثر على أرض الواقع حتى يصدر القرار من صاحب الشأن للعمل بمقتضى التقرير السابق ، وهو قرار بشري أيضاً تؤثر عليه عوامل عدة ، وقد يكون قراراً صابئاً وقد لا يكون كذلك ، ثم تداعيات هذا القرار قد تكون في صالح من اتخذه وقد يُفاجأ بما لم يتوقع .

وثانياً وهو المهم والذي يتوارى عنا أحياناً وهو اعتبار سنة المدافعة في هذا الكون ، وهي سنة عجيبة قد نصّ عليها القرآن الكريم في موضعين .

قال سبحانه: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ}

وقال: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}

والمدافعة تعني أن الشخص أو الجماعة أو الدولة أو الأمة قد ترضى بشيء مع كرهها له وفوات بعض مصالحها بسببه أو ما يلحقها من ضرر به دفعاً لما تراه أسوأ.

وإذا شئنا أن نصوّر ذلك على مستوى الدول فهو أنك تجد دولةً ترضى بما لم تتوقعه وما لا تحبه أو ترضى به خوفاً على مصالحها أو طمعاً في مصالح أخرى أو دفعاً لأسوأ الخيارات أو غير ذلك.

ومن القواعد العظيمة حسن الظن بالله تعالى

وهذا أصل عظيم من أصول الاعتقاد والإيمان ، وإني أزعم أن بعض التحليلات والتي تقدم نظرية المؤامرة دائماً أو تغرق في اعتبارها تخلّ بشكل أو بآخر بهذا الأصل أو كما تُعبر كتب العقيدة تخدش كماله أو تنقصه.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل كما في الصحيحين، ، ولا ينبغي أن يظن ظان أنه يربينا على الغفلة فالتفاؤل وحسن الظن بالله تعالى لا يعني الغفلة عن مكر العدو وتخطيطه ؛ ولكنه يمنع أن يسيطر الشعور باليأس والقنوط ولذا جاءت الآيات محذرةً من القنوط واليأس.

قال الله جل وعلا: {ومَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} ، وقال: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } ، ورحمة الله عامة ، وروح الله عام ، ومن أعظم ذلك رحمته بأمة الإسلام وروحه الذي مقتضاه نصرها وسائر رحماته وروحه... والآية الأخيرة قالها يعقوب عليه السلام حينما شعر من إخوة يوسف يأساً من وجود يوسف عليه السلام المفقود ، فكيف بعز الأمة المفقود؟ فهو أولى ألا نيأس من رجوعه ولو جزئياً.

وجاء التحذير من المخذلين والمرجفين ، قال سبحانه: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يردّ المخذل والمرجف في الجيش ويمنعه.

ومن القواعد أيضاً ما في القرآن الكريم من الوعيد للظالمين وانتقام الله منهم والوعد للمستضعفين والمؤمنين

كما في قوله سبحانه: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} ، وقال سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً}،وقال: {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } ، وقال : {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}.

ومن صور تضخيم المؤامرة وآثارها ما نجده من البعض من تكرار عبارة :أننا مستهدفون ، وأن العالم كله ليس بينه عداوات بل هي شكلية فقط ، والعداوة الحقيقية هي بيننا وبينهم جميعاً.

وهذا — عند التأمل – إخلال بحسن الظن بالله تعالى وإخلال بفهم سنة المدافعة التي أشرت إليها سابقاً ، كما أنه خطأ علمي إذ المصالح هي التي تحكم الدول والأمم ، ومن طبيعة البشر تعارض المصالح بينهم كما أنها أحياناً حرب على الزعامة وتنازع على الكعكة أو على الضحية ذاتها.

وفي التاريخ حروب طاحنة بين غير المسلمين كما في الحرب العالمية الثانية وغيرها .

وقفات :

١. الحديث عن المؤامرة من جميع الجوانب لم أقصد استيعابه بما تقدم ؛ بل يستحق دراسة مستقلة ، ولعل الله أن ييسر الكتابة فيه مني أو ممن هو أقدر مني ، ولاسيما حين ننطلق مما في القرآن والسنة فقد وجدت فيهما تناولاً عجيباً لهذا الموضوع .

٢. قد يصح نفي المؤامرة وإثباتها كيف ذلك ؟

بعض الأحداث لم يكن وراءها حين نشأت يد عدو أو منتفع محدد ، ولكن بعض أولئك مبدع في استثمار الحدث لصالحه ، فالمؤامرة نشأت هنا فيما بعد ، وهذا ما يتميز به المكر الغربي على وجه الخصوص في استثمار الأحداث والمبادرة إلى توجيهها أو تخفيف غلوائها عليه ، أو قطع الطريق على الآخرين في استثمارها أو قطف الثمرة منها .

٣. نفي المؤامرة لا يعني نفي الحذر؛ بل من كان ينسب كل حدث إلى المؤامرة فهو أبعد عن الحذر يشبه ذاك الراعي الذي كان يكرر :"جاء الذئب" مازحاً فلما جاء حقيقة لم تنفعه استغاثته.

٤. من همه المسارعة في نسبة الحدث للمؤامرة فهو قاتل للهمة يشلّ التفكير ، وتحليله – وفق المعايير العلمية – لا قيمة له إذ ليس له مستند.

كورونا والمؤامرة

الرؤية السابقة تنطبق على كل حدث ، لكن في بعض الأحداث قد لا يتحدث البعض عن المؤامرة على العرب أو المسلمين ؛ بل المؤامرة بين أطراف أخرى كما بين الصين وأمريكا ، وهو ما يطرح الآن بقوة في قضية (كورونا) ، وهنا أسجل بعض الوقفات :

١. إعمال القواعد السابقة في التأصيل السابق لا يعني إغفال حقائق ثابتة أو قرائن قوية في حوادث سابقة كالحرب البيولوجية فهي حقيقة علمية وتاريخية ، ومع ذلك فلا يلزم منه اعتبار كورونا أو غيره حربا بيولوجية إلا بدلائل أو قرائن .

٢. كذلك مما يتذكره الناس الاستغلال البشع والجشع من شركات الأدوية في بعض ما مضى من حالات مشابهة كانفلونزا الطيور والخنازير حتى ارتاب المتخصصون كالأطباء فضلا عن غيرهم من احتمالية الافتعال استنادا إلى مجموعة قرائن ، وخاصة مع تأثير الاقتصاد على قرارات الدول واستراتيجياتها (كمثال : قرارات الحرب أو التدخلات العسكرية بأشكالها قد تؤثر عليها أو على استمرارها لوبيات شركات الأسلحة) .

٣. تطوير فيروس في معمل أو مختبر لإطلاقه يفتقر إلى دراسة متخصصة لإثبات إمكانية ذلك علميا فليس البشر قادرا على كل شيء .

٤. حين تتهم بعض الأطراف بعضا فهذه بلاشك قرينة على وجود شيء ما ؛ لكنها مجرد قرينة واحدة ولاسيما مع تبادل التهم ، ومجرد نقل هذه التهم بينهم لا يعد تصديقا للمؤامرة ؛ لكن أن يصل التصريح

بذلك إلى تصريح رسمي أو شبه رسمي فربما له دلالة ما ، فالتحليل بفهم ذلك وهل هو رسائل مقصودة من طرف إلى طرف هو تحليل لا غبار عليه حين يكون تحليلا علميا وفق المعايير المعتبرة .

٥. الدراسات المتأنية المستندة إلى حقائق أو دلائل أو حتى قرائن هي لون من البحث العلمي المحمود ؛ بل يجب أن تقوم لدى المسلمين مراكز متخصصة للرصد والتحليل ، وقد يكون شيء منها قائما بالفعل ، ولكن نتائج ذلك وأشباهه تبقى اجتهادات بشرية لا يلزم أن تكون هي وجهة النظر الصائبة أو المؤكدة كما يحلو للبعض أن يراها ، ولا سيما مع وجود دراسات أخرى مغايرة .

٦. خلاصة الأمر أن التوازن هو الأصوب دائما ولهذا نجد الأدلة الشرعية أحياناً تأتي بمعنىً وبآخر يقابله كي يأخذ المسلم بكليهما بمنهج متوازن ، ولعل من أمثلة ذلك – وهو متعلق بالأوبئة – قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا عدوى" مع قوله صلى الله عليه وسلم :"لا يورد ممرض على مصح" ، وقوله :"فر من المجذوم فرارك من الأسد" ، وقوله في الطاعون :"من سمع به بأرض فلا يقدم عليه " فجمع العلماء بينها بأن ذلك كله بتقدير الله تعالى ، وأن المراد بنفي العدوى أي لا تعدي بذاتها وأن الشيئ لا يعدي بطبعه بمجرده دون تقدير الله وإذنه وأمره ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : "فمن أعدى الأول؟!" وهذا كله ليس نفياً للأسباب ، ولا تركاً لمعنى العدوى وأثرها؛ بل من أجل تقرير أن الله تعالى هو الذي بيده كل شيء ، وبيده المرض والشفاء ، وهو على كل شيء قدير ؛ فيزداد إيمان المؤمن بالله تعالى والتعلق به والتوكل عليه.

وختاما

فيجب علينا بكل حال – سواء كان هذا الوباء قدرا من الله تعالى بغير فعل فاعل ، أو كان من البشر ثم خرج عن السيطرة ، أو كان من أحد من البشر ظلما وعدوانا – فما لنا إلا التعلق بالله والتضرع إليه واللجوء إليه والفرار إليه .

قال جل وعلا :{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا} فأمر البشر عند البأساء أن يتضرعوا ، و(التضرع): من الضراعة ، وهي الذلة والاستكانة ، وأمر الله بها أيضا في سورة الأعراف بقوله :{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} .

وأمرنا الله بالفرار إليه فقال : {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } فنحن إنما نفر مما نخاف منه –كهذا الوباء– إلى الله تعالى فهو المأمن من الخوف والفزع .

ولقد تأملت هذا الوباء العجيب فلكأنما أقرأ هذه الآية أول مرة : {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ } فهكذا البشرية اليوم ظنوا أن هذا التطور الطبي مانعهم من كثير من الأمراض حتى اعتقدوا الأوبئة الفتاكة تاريخا مضى ، ولن يعود بعد اكتشاف اللقاحات ، {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} حيث فاجأ هذا الفيروسُ العالَمَ بما لم يتوقعوه ، {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ } فالرعب أصاب الناس حيث لم نعهد

مثل هذا الفزع في التاريخ المعاصر بإغلاق الحدود البرية والبحرية والجوية في كثير من الدول وتعطيل المدارس وكثير من الوظائف ومنع التجمعات حتى أغلقت المساجد والجمعات{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} أن الله جل وعلا {هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فلا تغتروا أيها البشر بما في أيديكم وتنسوا خالقكم الذي يقول للشيء كن فيكون ، واعلموا أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .

أسأل الله تعالى أن يلطف بالبلاد والعباد وأن يكفينا شر الأشرار وكيد الفجار وما اختلف به الليل والنهار ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

د. فهد بن عبد الرحمن اليحيى

١٤٤١/٧/٢٣

٢٠٢٠/٣/١٧